الحظ العريض

قصة

بقلم أحمد سويد

كانت هذه المرة الأولى التي يقف فيها عبد الجبار أمام المرآة منذ ستة اشهر ، فلقد أمسى في السنوات الأخيرة من أزهد الناس بالمظاهر ، رغم انه كان من آنق فتيات القرية قبل أن يداهمه الهم على صورة زوج مخصاب غزيرة الانتاج ، يموء حولها حين تدور في جوانب البيت أربعة جراء كتب لأشداقها أن تظل في حركة دائمة كطواحين الهواء .

.. وكانت حميدة تعرف بالتجربة ان عبد الجبار لا يقف أمام بقايا المرآة المعلقة في الجدار إلا حين يكون على سفر . لذلك دنت منه وقد استخفها نوع من الطرب الجبان الوقور ، وتمسحت به كالقطة حين تتودد الى صاحبها ثم سألته بلهجة حانية :

– هل حصلت عليها ؟

وهم عبد الجبار باحن ريفي تعود أن يدندنه في حالات الصفو ، هم به ليمزق قناع الكآبة الذي يغشى وجهه ، ولكن اللحن انساب من بين شفتيه ثقيلا فاتراً ، ثم لم يلبث أن تلاشى وتلاشت معه تلك الشحنة من الرجاء الفتي التي لامست ، منذ هنيهة ، قلب حميدة .

وأدار عبد الجبار اليها إحدى عينيه في حين ظلت الثانية ترتب باستسلام ، طلائع صلع مبكر فوجيء به يغزو القطاع الأمامي من رأسه ثم تساءل ببلاهة :

هاه ؟ هاه ؟

ومسدت حميدة الشعيرات العجفاء المتناثرة في البقعة المكتسحة من رأسه وتضاحكت :

– إطمئن يا عزيزي ، لن يسلبك الصلع شيئاً من فتوتك ، ورغم ذلك فالانكفاء بسيط لا يستحق الاهتمام .

ثم هزته من كتفه برفق وسألته بلهفة :

– والآن قل لي : هل حصلت عليها ؟

فانتفض عبد الجبار كالطاووس المبلل وعاودته نوبة المرح المفتعل التي ظهرت أعراضها عليه منذ دقائق ، ثم أخرج من جيبه الداخلية ، وبحرص بالغ ، بطاقة أنيقة وقرأ :

« عزيزي نوري بك :

حامل هذه البطاقة اليك احد رجالي ، فأرجو أن تشمله بالرعاية وحسن العناية »

وأعاد البطاقة الى غلافها الأنيق بشيء من الاعتداد المازح ، وقال لزوجته وهو يتصنع جد الرسميين :

–حميده ، خلاص . لم يعد عبد الجبار فلاحاً منتوفاً لا يشبع الرغيف . إنه الآن أفندي . افندي محترم ، « ابن حكومة » تلمع فوق كتفه الأيمن شارة الدولة .

... وأضحك هذا الدعاب حميده ، وأحست من فرحتها برغبة في أن تمسك الهواء ، أن تقبله بحرارة ، أن تسبح فيه كملاك مجنح بالنور ، ولكن مواء طفلها الصغير قطع عليها نشوة هذا الإحساس ، فهرعت إليه تلقمه ثديها الضامر وظلت عيناها اللتان تستريح فيهما خضرة المروج ، ظلتا عالقتين بالأفندي المنتصب هناك أمام بقايا المرآة ، يحلم ببشارة الدولة التي ستلمع غداً فوق كتفه الأيمن ، بفضل تلك الطاقة السحرية العجيبة التي تنطوي عليها بطاقة الحظ .

ولا يعرف أحد كيف حصل عليها ، على بطاقة الحظ تلك .

لقد مات منذ أسبوع ثوره الوحيد . مات « نجيم » فجأة بسكتة قلبية . هكذا شخص « حسيون » الداء القاتل ، ولكن عبد الجبار لم يقتنع بهذا التشخيص ، لم يقتنع لأنه لا يصدق أن الثيران هموماً حياتية تركب قلوبهـا وتقصف اعمارها قبل الأوان ، بل يعتقد أن التعب والهرم هما اللذان فجعاه بعشيره الصابر ، هذا العشير الذي سانده في عراكه مع الحياة طوال سنوات عشر .

وفكر بوسيلة عيش أخرى ، بآلة رزق تعوضه عن نجيم ، وانتهى بعد ليال من التفكير القلق الى قرار حاسم حمله أمس الى حميده مع تحية الصباح . إلا أن الزوجة الطموح سارعت الى استعمال حق النقض فنسف القرار لأنها تأنف أن يكون زوجها حمالا في المدينة تعيرها به الجارات حين يحمى بينها وبينهن الوطيس ، إذ من يضمن ألا تغتنم الجارات هذه السانحة فيخرقن الهدنة الموقوتة القائمة بينهن ليرشقنها من نوافذهن العالية بهذه المذلة ؟

لقد كان مطمحها ابداً أن يكون « ابن حكومة » وهي لا تدري لم يحلو لها أن تتصوره على التحديد شرطياً يتبختر بجزمته اللماعة وقبعته الحمراء ومسدسه الأميري ، وعلى كتفه الأيمن شارة تنبه الناس دوماً الى صفته الرسمية .

ذلك حلمها ولن تتخلى عنه مهما كان الثمن . أما هو فلشد ما يشتهي أن يتجسد على الشكل الذي تتمناه حميده ، ولشد ما يسعده أن يحقق لها حلمها الغاوي بكل تفاصيله .. ولكن ما الوسيلة الى ذلك ؟

وهمست حميده في أذنه :

– ياعبيط ، الدنيا وساطات ، وبطاقة توصية من حمدي بك تجلب الحظ وتطرد الشقاء وتفقأ عين النحس .

بطاقة من حمدي بك ؟

... وتحسس « العبيط » خده الأيمن بحركة لا شعورية ، فأحس بلهيب النار يكاد يشعله . لقد تذكر كيف صفعه الظالم ذات يوم لأنه تجرأ على الضحك في مجلسه ، ويعلم الله أنه لم يضحك يومذاك بلا سبب لينال الجزاء على سوء أدبه ، بل ضحك لأن نكتة عابرة أطلقها مهرج القرية « فواز السبيتي » انتزعت من بين شفتيه البائستين ضحكة مختزلة مضغوطة ؛ ولكنها مع ذلك آذت « البك » وأثارته ، فلقد كبر عليه أن تكون لمرابع عنده حرية الضحك بدون إذن مسبق منه .

حتى حرية الضحك هذه أمسكها البك عليه يوم كان مرابعاً عنده ، ولم يكن ينقص « حضرته » إلا أن يمسك على المرابعين حرية التنفس ، ليتحقق على يديه أرذل شكل من اشكال العبودية .

ولكن شكراً للطمة . لقد ردت عليه حريته . فتحت رئتيه للهواء النظيف الذي لا يلوثه بصاق السيد الصلف الهائج أبداً كالثور ، ولا يثقله صدى سوطه البغيض الناهش ابداً في أقفية الفلاحين .

وشكراً لنجيم الذي أسهم في تحقيق هذه الحرية له ، وأسهم في حفظها عليه طوال سنوات عشر ، استطاع خلالها أن يضحك حين يشاء وأن يقطب حين يشاء ، دون أن تكون هناك عين رهيبة مفتوحة تحمل إليه الأمر الصارم بأن يكبت ضحكته أو يكظم غيظه ويزور انفعالاته إكراماً لمزاج البك وانسجاماً

مع جوه النفسي العجيب .

وشكراً لقرطها هي ، قرطها الذهبي الذي أهداها إياه ليلة الدخلة ، فدفعته اليه ليلة المحنة ، ليلة طرده البك من ملكوته جزاء وقاحته .

بهذا القرط اشترى نجيم يومذاك ، بل لم لا يقول : اشترى حريته ؟

– « بطاقة من حمدي بك » ؟

ولاكها عبد الجبار ببطء ، لاك هذه الفكرة فألفاها مرة كطعم الذل ، كطعم المهانة ، ورأى فيها وأداً لحريته وتمزيقاً لكرامته ، ولكنه تساءل بلوعة

« متى كان لفلاح حقير مثله كرامة ؟ متى كان للبعوضة الضائعة في فضاء الله حساب ، في ميزان القيمة ؟ متى كان للجائع الذي لا يجد الرغيف رأي في الحرية ؟ »

... وحاول أن يتمرد على ضعفه ، هذا الضعف الذي دسته حميدة في أعصابه لكي يتحقق لها حلمها . حاول ذلك ولكنه حين أدار بصره في زوايا البيت وركزه أخيراً على الجراء الأربعة التي كانت تتكور في إحدى هذه الزوايا ، أدرك أن المكابرة ضرب من الجنون ، وانه عبد الحظ سواء استمرأ هذه العبودية أم مجها ، وأن ثورته لن تغير شيئاً من هذا الواقع ، فهي لن تحطم أصفاد يديه ، ولن تفتح له خزائن الأثرياء ليغترف منها ما يشاء ، ولن ترد الحياة لثوره ، ولن توفر الرغيف لصغاره ...

وداعاً إذاً أيتها الحرية

وفجأة ألفى نفسه يدب كالحشرة في الطريق الذي عبده رياء الناس وملقهم ، الطريق إلى ذلك القصر الرابض على الرابية القريبة يتحدى بشموخه فضيلة الاعتدال وبؤس عباد الله .

* * * *

انصابت الدمعة بين جفني عبد الجبار وهو ينحني على اليد التي اشتهى ومازال أن يحطمها ؛ هذه اليد العفنة التي تفح منها رائحة الجريمة ... كيف شاءت له عبودية الحظ أن يقبلها ثانية .

... وخيل إليه وهو ينحني أنه نسي تماماً كيف ينحني العبد أمام سيده ، وأن فقرات ظهره تتقوس بصعوبة وتمرد ، وخشي أن تكتشف عين البك التصنع في حركته الابتهالية هذه ، فلقد مرنت العين الخبيثة على تمييز شعائر الخشوع ما زاف منها وما صدق ، وأكسبها التأله هذه الحاسة الجديدة التي تتضاءل أمام قدرتها باقي الحواس .

... وهدأ ذيل الفيل الذي كان حمدي بك يجلد به جزمته جلداً هيناً رفيقاً ، وتحركت شفتاه الغليظتان تجلدان عبد الجبار بهذا الترحيب :

– خيراً انشاء الله . جئت تطلب الاستدانة طبعاً ... ألم يقل لك أحد أنني لا أقرض الشحاذين الذين لا يستطيعون الوفاء ؟

وتمنى عبد الجبار لو تولى الترحيب به ذيل الفيل بالنيابة عن البك ، فهو بلا شك أرأف وأخف وطأة ... وخطر له أن يصرخ في وجه حمدي بك :

« اجلدني ... اشتمني ، أطلق النار علي ، ولا تخاطبني هكذا » ... ولكنه تجلد وضبط أعصابه وقال بهدوء :

– ولكنني جئت أطلب إحساناً بسيطاً يا سيدي لا يكلفك سوى قصاصة صغيرة من الورق .

... وقهقه حمدي بك حتى غارت عيناه الثعلبيتان في محجريهما وأوشك كرشه أن ينبعج :

– إذاً ... لقد صحت الإشاعة فأنت تطمح إلى أن تصبح ابن حكومة ؟ ؟

... وجمع عبد الجبار كل رصيده من الشجاعة وأجاب :

– ولم لا ؟ فأنا أفضل من غيري الذين أوصلتهم إلى الوظيفة بطاقات الحظ !

– ولكنهم لا يستجدون تلك البطاقات ، بل يدفعون ثمنها ؟

– وأنا أيضاً أدفع !

... وتلمس عبد الجبار رأسه ، وأدرك أنه ورط نفسه وأوقعها في مأزق ، فمن أين يجيء بثمن بطاقة الحظ ؟

وبرق الطمع في عين البك فسأل بلهفة :

– سمعتك تقول أنك على استعداد للدفع ، هاه ؟

وبلع عبد الجبار دفعة من ريقه الشحيح :

– أدفع إذا نجحت !

.. ولم تطل المساومة كثيراً ، وصفق حمدي بك مزهواً كمن ربح معركة قاسية ، فأقبل كاتبه يحمل وجه جلاد ، وبعد ثوان كان البك يدس في جيبه صكاً بمبلغ معين ، ويسلم عبد الجبار بطاقة الحظ مهورة بختمه الأنيق .. هذا الختم الذي اقترحه الكاتب الذكي ليكفي البك مؤونة البصم بابهامه الأيمن ! !

* * * *

أمر عبد الجبار مشطه المفتت الأسنان مرة أخيرة رفيقة على الشعيرات الهزيلة في مقدم رأسه ، ثم أدار ظهره للمرآة وخرج متثاقلا كمن يمشي على القلق ؛ رغم معرفته بأنه إذا لم يسرع الخطى ، فستسبقه السيارة الوحيدة التي ترابط عند النهر منذ الفجر ، لتحمل أصحاب الحاجات إلى العاصمة .....يكدسهم العم سمعان على مقاعدها المخلعة كأكياس الخضرة ، ويحشرهم فيها حشراً حتى ليعسر على الهواء أن يتخلل أجسادهم التي تفح منها رائحة العرق والأطعمة والنحولة !

... ومع ذلك وصل عبد الجبار قبل أن تقلع سفينة العم سمعان بعشر دقائق ، وصل وفي نفسه رغبة غامضة بالتخلف كانت تتدثر حيناً بغموضها ، وتطفو أحياناً وتتنامى حتى تبلغ درجة الاشتهاء ! ولكن كان يحس معها أن عذراً ما يجب أن ينتصب ... عذراً ولو مختلقاً مرتجلا يصح أن يكون تبريراً لتلك الرغبة الغامضة التي تنشد الوضوح وتفتش عن هوية !

ولم يكن عبد الجبار جائعاً عندما أسند ظهره إلى الزيتونة القائمة على جانب الطريق ، بل لعلها رغبته الغامضة تلك ، هي التي وجدت بعض هويتها وتبريرها في التشاغل بالأكل . لقد كانت يده تحمل اللقمة إلى فمه بشيء من الفتور واللاوعي في حين كانت عيناه تضيعان في المجهول ، حتى إذا أعياها الضياع استراحتا ، باسترخاء ، على صفحة النهر المتلوي عند قدميه .

وأوغل عبد الجبار في الشرود ، وتمثلت له البسمة الهازئة التي استقبله بها حمدي بك . إنها تقطر لؤماً وتألهاً واحتقاراً ساحقاً . إنها تمرغ أنبل مافيه بوحل قذر كالحمأ . وعينه الخبيثة التي لم تتلفت إليه إلا مزورة ... لكم قرأ فيها من معاني الخسة التي يتميز بما أمثاله ممن مرنوا على الاستعلاء وامتهان إنسانية الإنسان .

يا للحقارة . لقد انحنى أمام الصنم ومسح بشفتيه المتوسلتين يده الآثمة ، واستجداه الحظ بانكسار كاد يطلق الدمعة من عينه ، استجداه كما كان الجاهليون يستجدون الآلهة حظوظهم مع فارق جوهري هو أن الصنم الذي استجداه هو ، قادر بالفعل على أن يهب الحظوظ حين يشاء ولمن يشاء .

... ولمعت في ذهن عبد الجبار شارة الدولة . لم يرها تتوهج على كتفه الأيمن كما كانت تريه إياها أحلامه البيضاء ، ولكنه أبصرها ، هذه المرة ، في يد لص ، لص محترم يصنع الشرائع ، ويمنحه نكد الدنيا المهابة والجلال والسلطة ، ثم أبصرها تتدحرج من تلك اليد القذرة لتحول قيداً في رجله ، ونيراً في عنقه وكرباجاً سليط اللسان يلسع قفاه !

... وتململ عبد الجبار وأحس كأن يد عملاق مخيف تضغط عنقه حتى لتكاد تخمد أنفاسه ، وخيل إليه أن جيفة نتنة تقبع في صدره ، وتثير فيه شعور

الفدائي

« الى الفدائيين العرب في كل مكان »

•

« من يصحبني ..
من يعضدني ؟
أنا إعصارُ
أنا يا وطني ..
أنا جبار »
... وزحفت الى وطني
تتأكّلني نارُ
ويزمجر خلفيَ إعصارُ :
« أزف الثار ... ازف الثارُ »
... وأنداحَ على الأفقِ ...
لونُ الغسقِ ،
فزحفت كاعصارِ ...
وشممتُ عبيرْ ...
وزحفت ... زحفت تحرّقني
نسماتُ عبيرْ ،
فحضنت ثرى وطني ...
وشممت عبيرْ .

... وأطلّ مع الغسقِ
عند الافقِ ...
شيءٌ ، كقطيع ذئاب ،
أحداق ذئاب ،
فزحفت على أرضي
وشممت ثرى ارضي ،
وقذفت ، على ضرم
اولى حممي ...
فصرعت ذئابْ ؛
وغلست ثرى وطني
بنجيع ذئاب .
ومضيت على ضرم
كالحمم ...
انفث لحني لهبا :
« نيرانك يا وطني
تسري بدمي »
ومضيت بلا سأمِ ،

وزحفت... زحفت الى سكَني ؛
يتأكّلني ...
ويحرّقني ، شعب يُقتَلْ ؛
فأطلّ مع « المجدل » ...
وعلى سكَني
خزّان مياهْ ،
فزحفت بـ ... « آه »
وسكرتُ بـ ... « آه »
ودفنتُ أسى شعبي
وضنى شعبي ،
ومن الأعماق — كجرحِ قتيل —
أشعلت فتيلْ ،
بلظى ناري ، وبجذوةِ ... آه
اشعلت فتيل ،
فانهار كاعصار
خزانُ مياه ،
ومضت كجبار
وكاعصارِ ،
يتأكّلني ويحرّقني :
« من يصحبني ...
من يعضدني ...
أزف الثارُ .. أزف الثارُ »

بغداد

محمد جميل شلش

القرف ، القرف من نفسه ، من العبد القابع فيه والذي انحنى على اليد الحقيرة يقبلها ، من المتسول الذي تخفى في كيانه وتساحب إلى مستنقع الذل منسحق الرجولة ميت الكرامة .

.. ولا يدري لم امتدت يده إلى جيبه بعفوية ، ولم أخرج البطاقة وقرأ : « حامل هذه البطاقة إليك أحد رجالي » ... وتوقف عند هذه الكلمة مجفلا كأنه لم يقرأها من قبل :

— أنا ؟ . أنا أحد رجاله ؟ يعني أحد أولئك الذين يتسابقون إلى تدليك ساقيه حتى إذا انتهوا من المهمة ووقفوا ينتظرون المكافأة .. تفل في وجوههم وانقلب على قفاه يقهقه ؟

أنا ؟ .. أحد رجاله ، رجاله هو . ذلك القرد المتصابي الذي جعل من قصره مسرحاً للخلاعة ؟ ....

... وناءت أعصاب عبد الجبار بثقل هذه الإهانة ، فانتفض كمن يتحفز لصراع غول رهيب ، ولكنه شعر بشيء من الراحة حين رأى أن سفينة العم سمعان قد أقلعت ، وانها هناك ، في نهاية الطريق الممتد ، تدب كحيوان متعب مريض .

وازداد شعوراً بالراحة وهدوء الأعصاب حين رأى البطاقة الأنيقة تترنح فوق مياه النهر كالخيفة الكريهة ... وإلى جانبها تبهت « شارة الدولة » !

وتنشق الهواء بعمق ، وداخله شعور واثق بأن هذا الهواء الذي يتدفق إلى رئتيه يحمل إليه الانعتاق ونسائم الحرية !

احمد سويد